المحاضرة الرابعة/المبحث الثالث: فلسفة التاريخ

أولا: ظهور فلسفة التاريخ

لا يوجد اجماع بين المؤرخون حول بداية "**تفسير التاريخ**" او "**فلسفة التاريخ**"، حتى مع وجود شبه اجماع على كون هيرودوت أبا التاريخ، يعترض البعض بالقول: "**ان هيرودوت ليس ابأ للتاريخ لان ما دونه يراعه ليس اكثر من انطباعات سائح لما شاهده في ضوء عقلية عصره**" اما ما فعله توكيديديس (٤٦٦-٣٩٥ ق.م)، فكان شيء كبير اذ كان اول من حاول "**ان يكتب التاريخ بحيادية وموضوعية، حتى اثارت نزاهته حفيظة حكام زمانه المهزومين في معارك (بيلو بونيز) الشهيرة بين اسبارطه واثينا فتعرض للنفي لأنه تساءل اين النصر الذي تعلنه قياداتنا؟** والاهم من ذلك قوله: "**أرى وكأن التاريخ يعيد نفسه**" والتي ثمت من يرى بانها "**صارت ايقونة المعنيين بعلم التاريخ تلك الكلمة السحرية التي باتت السؤال الذي يثيره التاريخ ويناقشه المؤرخون في مختلف العصور وربما كانت كلمات توكيديديس بداية ظهور ما صرنا نسميه تفسير التاريخ او فلسفة التاريخ**"، وبهذا يمكن القول بان عبقرية هذا الرجل اوصلته واوصلت الفكر الى اكتشاف المنهجية في التاريخ، ومن ثم تفسير احداثه، ولكن الامر لم يكون بهذه السهولة فالكتابة التاريخية مرت بمراحل من المد والجزر، ولاتزال مستمرة في قبول ورفض هذه النظرية او تلك بل هناك من يرفض اخضاع التاريخ للتفسير فصار هناك تفسير اخر خاص برفض التفسير، والواقع ان الحاجة الى اعمال تفسيرية شاملة نشأت حينما صار الانسان يجد ان الوقوف عند سرد الاحداث وتسجيلها لم يعد كافياً لمعرفة ما حصل بل لابد من رؤية معمقة لادراك طبيعة الأمور، فنشأة الحاجة الى الفلسفة او تفسير الوقائع وربطها لاكتشاف معنى الفعل الإنساني. فهناك من يجزم بان كل ما حدث ويحدث في التاريخ يمكن رصده او توقعه، اذا ما تمت مراقبة ومراعات الظروف التي سبقته واحاطت به. وهو ما يؤكد احقيته بان يعتبر علماً، نعم انه ليس علم تجربة واختبار الواقع. وانما هو علم (نقد وتحقيق لوثائقه) التي دونت فيها احداثه الماضية وتفسيرها، وكذلك فهو علم من حيث دراسته منهجياً، على ضوء قواعد اكتسبها بمرور الزمن، دفع الجدل المستمر حول علمية التاريخ بالعاملين فيه الى تصنيفه

ضـمن المعرفة الفلسـفية بعد ان مرة بالمعرفة الدينية اللاهوت والأدبية والعلمية، لكنه لم يسـتقر فيها رغم عدم الاتفاق على ذلك والواقع الذي صـــنف فيه التاريخ قد بدأ منذ عهود حتى وان لم يسـتعمل لفظ الفلسـفة مقرون بالتاريخ، قبل فولتير الذي اسـتخدم ذلك بقصـد عرض الاحداث التاريخية عرضاً تحليلياً نقدياً او علمياً او بتعبير ادق كان هذا المفكر يقصد بفلسفة التاريخ نوعاً من التفكير ليتقيد فيه المؤرخ بمقاييس منطقية، بدلا من الاعتماد على ما جاء في الكتب او الاعتماد على عنصـر الصـدفة (حسـين، طبيعة المعرفة التاريخية وفلسـفة التاريخ، ٢٠١٢، الصفحات ١١-١٥).

ظهر مصطلح فلسفة التاريخ واستعمل لأول مرة في عصر التنوير في فرنسا خلال القرن الثامن عشر وأول من استخدمه عام ١٧٥٦ هو فرونسوا آرويه فولتير، في كتاب عنوانه (فلسفة التاريخ) وكرر الفكرة في كتاب اخر (مدخل في سلوك وطبائع الأمم وروحها) وقصد بذلك حسب عبد الجبار ناجي "**التفكير بالتاريخ تفكيراً عقلياً**"، ففلســـفة التاريخ عند فولتير تهدف الى تنقيح الدراســـات التاريخية وتعديلها فالتاريخ النقدي هو تحرير الفكر الإنســـاني من ما جاء في الكتب القديمة (ناجي، ٢٠٠٨، صفحة ٥٨)، ويضيف الملاح بانه أراد ان ينبه المؤرخين على ضرورة اســـتخدام منطق الفلســـفة العقلاني في دراســـة التاريخ من اجل نقد الروايات والاخبار التاريخية وتنقيتها مما دخل فيها من خرافات واســـاطير وكل ما لا يتفق مع حكم العقل والواقع، (الملاح، ٢٠١٢، صفحة ٣) ووفقاً للملاح قد تكون فلسفة التاريخ وجدت لحاجة المؤرخين ليس الفلاسفة، لكن ذلك لا يعني انها قد بدأت معه، فالتفلســـف في التاريخ قد ظهر قبل ورود المصـــطلح بمدة طويلة، ولم يقتصر على ما قدمه الفلاسفة من رؤى ونظريات حول مسيرة الكون والتاريخ البشري منذ القدم، فقد كان عبد الرحمن بن خلدون فيلسـوف التاريخ اول من أشـار الى ان التاريخ "**نظر وتحقيق وتعليل للكائنات وعلم بكيفيات الوقائع والأســـباب**" وهذه العبارة تعبر بوضـــوح عن المعنى الحقيقي للتاريخ، وتشير الى ان هناك قوانين وأسباب تتحكم في حركة التاريخ (طحطح، ٢٠١٨، صـــفحة ٨)، ذلك التعريف الذي عده مرتضـــى النقيب بانه غاية في التطور بالنســـبة لمفهوم التاريخ ويمثل تعبير حي عن ثنائية التاريخ كموضوع يدور حول احداث الماضي واخباره كما نقول كيمياء او فيزياء، والتأريخ وهو ما يمثل العلمية التي يضـــفيها المؤرخون على أعمالهم

حينما يمارسون "**النظر والتحقيق والتعليل**" على تلك الاحداث والوقائع أي ما يقابل التفلسف في الجزئيات مع المحافظة على الموضـــوعية والزمكانية والالتزام بمنهج البحث التاريخي الصـــارم (النقيب، ١٩٩٩، الصفحات ٤-٥). أي على حد تعبير غوستاف لوبون "**تتألف فلسفة كل علم من مبادئه العامة، وإذا تحول هذا العلم تحولت فلسفته ايضاً**" (لوبون، ٢٠١٨، صفحة ١٣).

يعرف النقيب فلسـفة التاريخ بانها تعني "**النظر الى الوقائع التاريخية بنظرة فلسـفية من اجل معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم بها**" وربما ينتهي هنا التعريف بالنسبة لعمل المؤرخين او فلاسـفة التاريخ عند النظر للموضـوع من زاوية الاحتراف للمهنة، لكنه يضـيف الى تعريفه "**والعمل على اســـتنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والاجيال**" ويرى ان تعريفه بما يحتويه من ثنائية ينطوي على مفهوم عام لفلسـفة التاريخ ويميز بين فلسـفة التاريخ التي تعني من الناحية المنهجية الفلسـفة التحليلية للتاريخ او الفلسـفة النقدية للتاريخ وفقاً لعفت الشـرقاوي ويحدد اهتمامها بدراسـة وتحليل مناهج البحث التاريخي عند المؤرخ وادواته العقلية من وجهة النظر الفلسفية من الممارسة النقدية الى التحليل التاريخي وربما يشـــترك الفلاســـفة مع المؤرخين في حالة قيامهم بدراســـة ما انجزه ذلك المؤرخ، لكن في اطار المنهج الفلسـفي، اما ما يتعلق بالأمر من زاوية منهج البحث التاريخي فهو حكراً على المؤرخين دون غيرهم وهو ما طالب النقيب من المؤرخين الالتفات اليه في مناقشـــة الرســـائل والاطاريح الجامعية لتخصص التاريخ ودعا لجان المناقشة الى المناقشة بفلسفة التاريخ، وتلك الدعوة ليست ببعيدة عن دعوة المؤرخ عبد العزيز الأمراني للمتخصـصـين بالكتابة التاريخية في عالمنا العربي بالقول: "**يمارس المؤرخ العربي كتابة التاريخ وفقاً للنمط التقليدي القائم على ســـرد الوقائع وجمعها في مصـــنفات ومجلدات تظل في الغالب حبيســـة الرفوف ونادراً ما تقرأ.. ان الكتابة التاريخية العربية ما تزال حبيســـة الرؤية التقليدية للتاريخ موضـــوعاً ومنهجاً.. لقد ان الأوان ليخرج المؤرخون العرب من ابراجهم العاجية ويطلون على مشكلات الحاضـر كمنطلق للبحث والتفكير في الماضي بغية المساهمة في إيجاد حلول لمشكلات الواقع العربي..[ويضيف] انها دعوة صـــريحة الى المهتمين بالكتابة التاريخية في الوطن العربي لتجاوز التاريخ الســـردي، والعمل على تأسيس تاريخ نقدي /اشكالي يبحث في المشكلات الراهنة للمجتمع اعتماداً على**

مقاربة علمية ونقدية لا ترى في دراسة الماضي هدفاً لذاته بل مدخلاً لفهم الحاضر لاعادة بناء علاقة جديدة مع الزمن التاريخي" (الأمراني، صفحة ١) اما النوع الاخر وهو الفلسفة التأملية للتاريخ التي تهتم بالنتائج التي يتوصل اليها المؤرخون كأساس لبناء صروح علمية وفكرية جديدة فهي ربما من واجبات الفيلسوف (النقيب، ١٩٩٩، الصفحات ٥٦-٥٧).

ويتفق خالد طحطح حول تلك الثنائية لفلسفة التاريخ في الدراسات التاريخية الحديثة التي تشير الى معنيين اثنين من جوانب دراسة التاريخ، المعنى الأول "**يجعل من فلسفة التاريخ دراسة لمناهج البحث من حيث الطرق المستعملة في الكتابة التاريخية، ونوعية الوثائق المعتمدة وكيفية التحقق من الاخبار، ومدى الموضوعية والحياد في تحليل الاحداث**" اما المعنى الثاني ويرى بانه الأكثر أهمية وانتشاراً، فهو "**تقديم وجهة نظر عن المسار التاريخي ككل...واكتشاف القوانين المتحكمة في ذلك...وامكانية التنبؤ بسير المستقبل البشري**" (طحطح، ٢٠١٨، صفحة ٨)، تلك الثنائية التي يختصرها يحيى الملاح بـ"**الكلية** و"**العلية**". (الملاح، ٢٠١٢، صفحة ٧) ويبدو ان الرؤى أعلاه هي الأكثر انتشاراً لان فلسفة التاريخ لم تعد حكراً على الفلاسفة والمؤرخين دون غيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى.

ثانيا: أسباب نشوء فلسفة التاريخ

فلسفة التاريخ هي حقل من حقول المعرفة الانسانية التي تسعى لفهم التاريخ وفق مناهج البحث العلمي، وظهرت في القرن الثامن عشر الميلادي، فهي تبحث في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية وتعمل على اكتشاف العوامل التي تؤثر في سير الوقائع التاريخية واستنباط القوانين التي بموجبها تتطور الامم على مر العصور.

ينسب هذا النوع من المعرفة الى المؤرخ ابن خلدون من حيث التسمية والمنهج، في حين يرى بعض المؤرخين أن فولتير كما اسلفنا هو أول من أطلق تسمية فلسفة التاريخ، ولكن من خلال تعريف ابن خلدون للتاريخ اشار الى فلسفة التاريخ عندما قال أن هنالك نوعان من التاريخ

ظاهر وهو اخبار الامم وباطن وهو علم التاريخ وحكمته (فلسفة التاريخ) فوصفه انه " نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق، فهو لذلك اصيل في الحكمة عريق، جدير ان يعد من علومها وخليق " اذاً التحقيق والتعليل ومعرفة الاسباب للحدوث هو كشف عن حقيقتها بالطرق العلمية وبقوله أن " التاريخ اصيل في الحكمة" اي متأصل في الفلسفة والفلسفة متأصلة به لان الحكمة هي الفلسفة. ولذلك فقد سبق ابن خلدون فولتير في مثل هذا النوع من المعرفة.

ان قصد فولتير من دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف دراسة عقلية لتخليص الدراسات التاريخية من السرد المثقل به. فسميت فلسفة التاريخ بالتاريخ النقدي او تاريخ التاريخ لانها تجاوزت التاريخ السياسي والعسكري للافراد والشعوب الى تاريخ الحضارات الانسانية فدرست اسباب نشؤها وتدهورها. وبذلك يتم من خلال مناهج الفلسفة في دراسة الحوادث التاريخية تنقية التاريخ من كل ما يقع في دائرة الشك وتخليصه من الاساطير لقد اغفل المؤرخون عن نقطة مهمة اشار اليها فولير وهي الحكمة في دراسة حوادث التاريخ والاهتمام بالمغزى والمعنى وهذا ما أهتم به الفلاسفة. ويمكن اجمال الاسباب التي ادت الى نشوء علم فلسفة التاريخ:

١. قصور الطريقة التقليدية عن اكتشاف مسار التاريخ وغايته فقدمت فلسفة التاريخ العون والمساعدة للمؤرخين لبلوغ هذا الهدف وجعلت حوادث التاريخ المتراكمة ذات معنى وهدف.
٢. اكتشاف الحكمة والمعنى الذي تتحرك فيه احداث التاريخ من اجله لأن ما يكتبه المؤرخون لا يحقق هذا الغرض، فيرى فوليتر بانه يجب استخدام الفلسفة في التاريخ اي العقل في معرفة سير الحوادث التاريخية، وأن لا يكتب التاريخ سوى الفلاسفة لتخليصه من الاساطير التي شوهت التاريخ، كمحاولة للفت الأنظار حول اهمية التفسير في التاريخ.
٣. فلسفة التاريخ لا تجعل المؤرخ يفقد اتصاله بالحاضر عندما يبحث في الماضي، ولهذا فهي تجعل فيلسوف التاريخ يستمد مادته من واقعية التاريخ، وبذلك فإن كلا العلمين يكمل آحدهما الآخر.

ثالثاً: العلاقة بين الفلسفة والتاريخ

اذا عرفنا الفلسفة بانها احكام على احداث الزمن وحقائقه، والتاريخ هو سجل تلك الاحداث، وجمع الاثنين يعني التعبير عن احداث الواقع. فالفلسفة هي احكام عقلية تستمد مادتها من العقل واستنتاجاته، وللخيال دور كبير في الفلسفة لكن التاريخ يشد الفلسفة من تأملات الفلاسفة ويعيدها للواقع باحداثه الجزئية. ومن ما سبق يمكن ان نخلص الى أن كلا من المؤرخ والفيلسوف يبديان اهتماماً في قضايا مشتركة من التاريخ كالموضوعية، المعرفة تفسير التاريخ...الخ. ولكن ما يبينه المؤرخ من أهتمام يكون محدد باحداث جزئية يحكمها زمان ومكان معلومين ويتوصل الى نتائج فردية وليست مطلقه ولا يصل الى قوانين ثابته كما في العلوم الطبيعية.

يرى كولن ولسن وهو احد الفلاسفة المحدثين أن فلسفة التاريخ هي كل شيء يقع خارج نطاق اهتمامات المؤرخين الفردية ولكن لا نستطيع أن نقول على الفيلسوف فيلسوف اذا ما ابقى التاريخ خارج حدود دراسته فجزء من مهمة الفلسفة النظر الى التاريخ وتعزيز مكانته بالنسبة لحقول البحث الاخرى. فالتاريخ يشحذ طاقات الفيلسوف الفكرية فيسمح له ببذل المجهود الفكري والتحري العميق. ان علاقة الفيلسوف بالمؤرخ سجلت نوعاً من التشنج الفكري والمعرفي بسبب نظرة الفيلسوف الى التاريخ وطريقة تحصيل المعرفة التاريخية وحرص المؤرخ على اثبات الحقيقة بواسطة الوثائق والآثار وحدها فنظر اليها الفيلسوف نظره شك وريبة بأخفاء الحقائق التاريخية من ناحية وجعل التاريخ مجرد سرد فيصبح عديم الفائدة يفتقد الروح العلمية من ناحية اخرى. يرى اشبنجلر وهو فيلسوف الماني عاش في القرن العشرين ان على المؤرخ ان يميز نفسه عن منظف الاتربة الاكاديمي الباحث في الاثار والوثائق] الذي عليه ان يؤطر نفسه ضمن حدود السرد والنقل والترتيب للاحداث [فعليه أن يتصف بمعرفة فطرية للمعاني الكامنة وراء الاحداث وأن يكون المؤرخ مؤهل فطرياً لهذا العمل. وأن لا يمارس هذه المهنة إلا من استطاع التوفيق بين الموهبة والامكانية العلمية في تدوين الاحداث التاريخية أن التاريخ والفلسفة متشابهين في عدة جوانب ولكن الاختلاف بين الاثنين في طريقه التعامل مع الحقائق وفيما يلي الاختلاف بين العلمين:

١- الفلسفة

- النقد الموجه الى الاتجاهات الفلسفية ينتج عنه بناء اتجاهات اخرى اما مكملة او متناقضة.

- طريق الفلسفة طريق بناء علمي للارتقاء بالفكرة وتطويرها.
- ليس بالضرورة أن يكون حاضر الفلسفة هو صحيحها.
- المناهج المستخدمة في الدراسات الفلسفية ليس شرطاً أن تكون صحيحة او تمثل الحاضر.
- تستمد الفلسفة افكارها من اتجاهات متعددة.
- دراسة الفلسفة للوصول الى القوانين التي يسير التاريخ على وفقها.

١-التاريخ:

- يعتمد على الوثيقة والآثار ولا يمكن الحياد عن المصادر في تسجيل الاحداث وتدوينها.
- مهمة المؤرخ تنحصر في اعادة النظر في الاحداث التاريخية ودراستها وفقاً لمنهج علمي.
- مهمة المؤرخ الوصول الى حقيقة ما جرى فعلاً في الماضي.
- بفضل التفلسف أي التفسير انتقل عمل المؤرخ من حالة السرد والنقل للاحداث الى التفسير والتحليل العلمي وبناء الاحكام والنظريات في مجال التاريخ وسجل حضوراً في مجال البحث العلمي ي واوجد حقلا جديدا للتاريخ أكثر علمية لا يعتمد الوثائق والآثار فحسب في مادته الاساسية وهو فلسفة التاريخ الذي هو مزيج للمقولات الفلسفية (الكلية الشمولية / العلية الغائية) والقراءات التاريخية للاحداث، ولايزال هذا الاختصاص يستخدم على نطاق محدود من التاريخ ولم يشمل كل التاريخ.

رابعاً: سمات فلسفة التاريخ

١. الكلية (النظرة الشمولية للاحداث):

أن احداث التاريخ تبدو للشخص العادي كأنها جزئيات متناثرة ومتباعدة لا يربطها اي قانون او نظام، لكن الحقيقة خلاف ذلك أن فلسفة التاريخ ترفض النظرة الجزئية او الفردية للاحداث فحوادث التاريخ ترتبط فيما بينها بقانون واحد وهو التاريخ العام للانسانية وهي ترفض المصادفة العمياء في مسار الاحداث وترى ان التاريخ واحد متكامل بدايته الماضي السحيق وينتهي الى

اللحظة الحاضرة التي نحن فيها. فالتحليل والتعليل للحوادث التاريخية امر ممكن داخل هذا الواحد التاريخي وكذلك بناء النظريات العامة في تفسير التاريخ.

٢. العلية (السبب):

أن لكل حدث تاريخي سبباً او علة ادت الى وقوعه. وهذا التصور موجود في اطار تفسير احداث التاريخ الجزئية المرتبطة بزمان ومكان معين، فطبع التاريخ بالنسبية، أما في فلسفة التاريخ والفلسفة يتسم مفهوم العلة والسببية بنوع من الشمولية فهي تسعى الى اختزال العلل والاسباب الجزئية الكثيرة للحوادث التاريخية الفردية بزمان معين الى علة واحدة او علتين ليفسر بضوئها التاريخ العالمي، وبذلك تخرج من الجزئية في التفسير الى الكلية والشمولية.

٣. الغاية والنظرة المستقبلية:

أن فلسفة التاريخ ترى أن الاحداث التاريخية تسير نحو غاية معينة فوحدة الاحداث والقوانين لم تات اعتباطاً وانما هناك هدف تسير اليه وهو غاية التاريخ. وكذلك تنظر فلسفة التاريخ الى المستقبل نظرة مختلفة عن التاريخ، فالتاريخ يرى انه احداث مضت. اما فلسفة التاريخ تجعل من هذه الاحداث حلقة وصل للعبور الى المستقبل من خلال اخذ العبرة والحكمة منها مرورا بالحاضر.